الظهورات بين الحقيقة والخيال

سامي حلاّق اليسوعيّ*

١ ـ المقدّمة: الظاهرة بين الأمس واليوم

تتناقل الألسن وبعض وسائل الإعلام والمنشورات في أيّامنا هذه الكثير من الروايات عن حدوث الخوارق والعجائب في المدن والقرى في كلٍّ من سورية ولبنان والأردنّ ومصر. فمن الروايات ما يتناول تمثال العذراء الذي يذرف دمعًا، وصورةً أو أيقونةً ترشح زيتًا، أو تلك المرأة التي تُخطف بالروح وتتلقّى الرسائل من السماء... إنّ هذه الظاهرة ليست جديدة، فالظهورات والرؤى والعجائب والترشوحات والبلاغات والرسائل توالت عبر تاريخ الكنيسة أكان ذلك في الغرب أم في الشرق. فالمسيحيّ المؤمن، الثابت على الكتب المقدّسة، يعترف بوجود الآيات والعجائب. وإنجيل مرقس يخصّص أكثر من نصف محتواه لرواية آيات يسوع، إلاّ أنّها آيات تحمل تعليمًا وبلاغًا إيمانيًّا، وتعبّر، قبل أيّ أمر آخر، عن محبّة الله للبشر. فالآية لها طابعها الاستثنائيّ العجائبيّ، وهذا الطابع يشير إلى عظمة الله وحنانه الخلاّق وأمانته لشعبه. والعجائب، في نظر المؤمن، هي من علامات الأزمنة، لا بل تعني أنّ الملكوت قريب وهو هُهُنا، كما أنّ ما هو مرئيّ منها، أي العجيب الغريب، هو ثانويّ بالنسبة إلى المعنى الدينيّ الذي لا يُدرَك إلاّ بالإيمان.

إنّ الكتب المقدّسة نفسها تعلن التحذير التالي: «سيظهر مسحاء دجّالون

(*) كلّيّة الفلسفة واللاهوت اليسوعيّة ـ باريس.

وأنبياء كذَّابون، يأتون بآيات عظيمة وأعاجيب حتَّى إنَّهم يُضلُّون المختارين أنفسهم لو أمكن الأمر. فها إنّي قد أنبأتُكم» (متّى ٢٤/٢٤).

ولا شكّ أنّ عالم اليوم، وخصوصًا عالمنا الشرقيّ، الذي يمرّ بأوضاع صعبة سيِّئة على الصعيد السياسيّ، لا بل على الصعد كافَّةً، يفتِّش عن طريق للخلاص من الإحباط والبؤس واليأس، فكانت الردَّة الدينيَّة أو ما يسمَّى «بالصحوة الإسلاميَّة» إثر سقوط بعض الأنظمة القائمة على إيديولوجيَّات معيَّنة. وهكذا ارتبطت «الردَّة الدينيَّة»، وما يتبعها أو يسبقها من قلق على جميع المستويات، بما هو خارق أو عظيم أو استثنائيّ. وحيث إنّ مسيحيّي الوطن العربيّ أقلِّيَّات يكاد لا يسمع صوتها، أخذت الردَّة الدينيَّة عندهم صورةً مميَّزة هي كثرة الأمور العجيبة أو المعجزيَّة التي ذكرناها في أعلاه، وهو ما سنسمِّيه «الظهورات». فكيف نميِّز بين ما هو صحيح وخاطئ في تلك الظاهرة؟ وماذا تقول الكنيسة، بل الكنائس، في شأنها؟ ما هو الخطاب اللاهوتيّ الذي يقود إلى المعرفة الحقّ في هذا السِّجال؟

٢ ـ ثلاثة لهدف واحد

الظهور في عرف المسيحيِّين حدث غير مألوف من خلاله تتَّصل شخصيَّات سماويَّة، كالعذراء مريم أو المسيح أو واحد من القدِّيسين ببعض أفراد البشر (مشاهدين) بواسطة النظر أو السمع أو كليهما معًا. وكثيرًا ما يرافق الظهور حوادث معجزيَّة تثبت للعامَّة، التي لا ترى الظهور ولا تسمعه، أنّ ما يقوله مُشاهد الظهور صحيح. فالظهور يقوم إذًا على ثلاثة عناصر:

الرؤية : وتتمّ عمومًا في وضح النهار، يراها المُشاهد وهو منخطف أو في وعيه الكامل.

السمع : يتلقَّى مُشاهد الظهور رسالة سماويَّة عليه أن يعلنها حرفيًّا.

المعجزة : شفاء من مرض، أو نزول زيت، أو انتشار دخان بخور... يراه جميع الناس ويثبتوا من صحّة شهادة مُشاهد الظهور.

ويقلّ شأن الظهور، وتضعف أهمِّيَّته حين يغيب واحد من هذه العناصر.

٣ ـ تاريخ الظهورات

الظهورات في الكتاب المقدّس

يخبرنا كتاب العهد القديم أنّ الله كان على اتّصال دائم بشعبه من خلال الظهورات. واعتمد آباء الكنيسة على الفصل الثالث من سفر التكوين ليشرحوا سبب هذا الاتّصال. فبعد خطيئة آدم، وعد الله البشر بالخلاص. وصار يحضّر شعبًا ويؤدّبه لكي يأتي منه فادي البشر. وكانت الظهورات في العهد القديم علنيّة: زيارة الملائكة لإبراهيم، وعمود الغمام في سيناء، أو في الحلم: حلم يعقوب، ويوسف...

وأعظم ظهور لله في تاريخ الخلاص هو تجسّد الابن في يسوع المسيح. هذا هو جوهر إيمان المسيحيّين الأوّلين، الذين تابعوا رسالة الناصريّ بعد قيامته، ونشروا تعاليمه في العالم أجمع على أنّها بشرى لجميع الأمم. وكان الربّ يُعين التلاميذ في أثناء تبشيرهم بظهورات كثيرة. فبالظهور عرف بطرس الرسول كيف سيتصرّف مع قائد المائة قرنيليوس (رسل ١٠/٣ ـ ٨) وتحرّر من السجن (رسل ١٢/ ٧ ـ ١١). وبالظهور اهتدى بولس الطرسوسيّ إلى الدين المسيحيّ وهو في طريقه إلى دمشق (رسل ٩/٣ ـ ٩). وعَلِمَ حَنَنْيا بهذه الهداية (رسل ٩/ ١٠). وكانت الظهورات منتشرة بين المسيحيّين، وكانت الجماعات المسيحيّة الأولى تضمّ أنبياء ينالون إلهامات سماويّة تشبه الظهورات (١ قور ١٤/٢٩ ـ ٣٠).

أزمة الظهورات في زمن الآباء

لم يمنع تحديد الكتب القانونيّة، التي تكوّن العهد الجديد، الظهورات من الاستمرار. فكتيّب الديداكي، وهو من أقدم الوثائق المسيحيّة في آداب السلوك والعقيدة والأسرار ونظام الجماعة المسيحيّة، يشير إلى الظهورات حين يتحدّث عن النبيّ ودوره في الجماعة المسيحيّة. كما اعتمد الأب هرماس على ظهورات نالها، وكانت ذات طابع رؤيويّ، لكي يحثّ المسيحيّين على التوبة.

وفي سنة ١٧٢، دعا كاهن من فريجية اسمه مونتانس إلى تجديد المواهب التي عرفها المسيحيون الأوّلون. وقال بوحي ثالث هو وحي البارقليط. فدعم بذلك كبرياء الذين ينالون رؤى ويتنبأون، وأيّد مطلبهم في سلطة أعلى من سلطة الأساقفة، وصادف موقف مونتانس انتشار إيمان مبالغ فيه بظهورات الشهداء القدّيسين. فاضطربت الكنيسة، وقلق المسؤولون فيها إذ رأوا الإيمان يبتعد شيئًا فشيئًا عن روح الإنجيل ويغوص في عالم الخرافات. وفقد النبيّ دوره في الجماعة المسيحيّة، وتصلّب موقف الكنيسة من الظهورات.

واستمرّت الظهورات رغم الحظر

وعلى الرغم من تشدّد الكنيسة في مسألة الظهورات، احتلّت هذه مكانةً كبيرة في كتابات الآباء وسيَرهم: القدّيس غريغوريوس العجائبيّ (٢١٣ ـ ٢٧٠)، القدّيسة مريم المصريّة (سيرة كُتِبَت في القرن السادس)، تيوفيلس (القرن السابع)، يوحنّا الدمشقيّ (القرن الثامن). كما نجد في سِيَر آباء البرّيّة كثيرًا من الظهورات الإلهيّة أو الشيطانيّة، وكان الرهبان يميّزون إرادة الله من خلالها، ويتقدّمون في حياتهم الروحيّة بواسطتها، ويعرفون خفايا القلوب. ولسوء الحظّ، فإنّ صحّة تاريخيّة روايات الظهورات في ذلك العصر أمر مشكوك فيه، لأنّ كُتّاب سِيَر القدّيسين لم يتردّدوا في إضافة ظهورات إلى حياة القدّيسين ليزيدوا من شأنهم حبًّا لهم أو منافع من التقوى المبالغ فيها. ولهذا يميل البعض في أيّامنا إلى رفض جميع ظهورات الماضي من أساسها معتبرين إيّاها خيالاً أدبيًّا.

وكان القدّيس أُوغسطينُس يؤمن بقيمة الحلم، ويرى أنّ معونة الله الرحيمة تعلّمنا به أشياء كثيرة. ومع ذلك، كان يعلن أنّه من الصعب تمييز الإلهامات الحقيقيّة من الكاذبة. وكان موقفه من الظهورات معتدلاً جدًّا، خصوصًا في كتابه الثاني عشر، وهو تعليق على المعنى الحرفيّ لسفر التكوين. وأثّر موقف القدّيس أُغسطينُس هذا في كثير من الأبحاث العقائديّة التي تناولت موضوع الظهورات منذ العصور الوسطى حتّى يومنا هذا.

هدنة العصور الوسطى

حين نتحدَّث عن الظهورات بعد القرن العاشر الميلاديّ، لا بدَّ لنا من أن نميِّز بين الكنيسة الشرقيَّة والكنيسة الغربيَّة. فظهورات الكنيسة الشرقيَّة استمرَّت على ما كانت عليه من قبل دون أي تغيير يذكر. وظلَّ الناس في كلّ مدينة أو قرية يتحدَّثون عن أيقونات عجائبيَّة «تبخِّر» وتبكي وتعبس وتبتسم، وعن قدِّيسين يظهرون لمريض فيشفى، أو لسارق فتُشلّ يده، أو لعابث بالمقدَّسات فيصاب بالعمى. ولم تتجاوز أخبار هذه الظهورات أو تأثيراتها حدود المدينة أو الأبرشيَّة.

أمّا الكنيسة الغربيَّة، فقد شهدت تغيُّرًا ملموسًا في مسألة الظهورات، وصار ينتج عن كلّ ظهور مزار وحجّ أو جماعات مكرَّسة. وكما حدث في سِيَر قدِّيسيّ الشرق، فقد بالغ كتَّاب حياة القدِّيسين اللاتين في رواياتهم، ونسبوا إلى كثير من الآباء الروحيِّين أو أصحاب السِيَر الصالحة ظهورات ليزيدوا من شأنهم بين الناس. لكنّ تلاميذ مؤسِّسي الرهبانيَّات حرصوا على أن يعتبروا هذه الظهورات علامات من السماء تساعد القدِّيس على معرفة إرادة الله في حياته لا أكثر، ولم يعيروها اهتمامًا خاصًّا، بل كانوا يسردونها على أنّها مسألة ثانويَّة.

من القرن التاسع عشر حتَّى اليوم

تميَّز القرن التاسع عشر في أوروبا بكثرة الظهورات. وربَّما كان هذا بسبب نموّ وسائل الإعلام وسرعة انتشار الأخبار. فعلى سبيل المثال، كان يحدث في فرنسا ظهور واحد كلّ مائة سنة، وفي القرن التاسع عشر حدثت أربعة ظهورات خلال فترة خمسين سنة:

المِدالِيَّة العجائبيَّة La médaille miraculeuse ١٨٣٠ .

سيِّدة السالِيت N.D. de la Salette ١٨٤٦ .

سيِّدة لورد N.D. de Lourdes ١٨٥٨ .

سيِّدة پُونمان N.D. de Pontmain ١٨٧١ .

وفي القرن العشرين، ازداد عدد الظهورات في العالم وبلغ مقدارًا يثير

الريبة. فامتنعت الكنيسة الكاثوليكيّة عن الإدلاء برأيها في أيّ ظهور ابتداءً من سنة ١٩٣٣، أي بعد موافقتها على ظهورَي بُوران Beauraing وبانُوه Banneux البلجيكيَّين. وبلغ عدد الظهورات التي تطلب اليوم من الكنيسة إقرارًا بسلامتها ٢٢٥ ظهورًا، تنتشر في جميع أنحاء العالم. وقد أصدرت الكنيسة ٤٠ حكمًا سلبيًّا على ظهورات بدا زيفها واضحاً للعيان مثال:

ظهور نِسيدَه Necedah (الولايات المتّحدة الأمريكيّة): بسبب خلاف نشب بين مُشاهِدة الظهور والكنيسة، انشقَّت هذه السيّدة وأتباعها عن الكنيسة وأسّست كنيسة منفصلة، بعد أن نالت إلهامًا خلال أحد الظهورات يطلب منها فعل ذلك.

بالمار Palmar (الولايات المتّحدة الأمريكيّة): ظهر المسيح لأعمى منذ مولده وأراه العالم حوله، ووصف الرجل للناس ما رأى فأثار دهشتهم. ثمّ طلب منه المسيح أن يصير مطرانًا. فدفع مالاً كثيرًا لأسقف فيتنامي فقير، ونال منه هذه الدرجة. ثمّ طلب منه المسيح أن يكون بابا على الكنيسة الكاثوليكيّة.

الدائرة السادسة عشرة (باريس): كانت يدا واحد من المستخدَمين لدى رجل ثريّ تنضحان زيتًا كلّما صلّى للعذراء. وأعلنت الكنيسة التي ينتمي إليها الثريّ ومستخدمه في مرسوم بطريركيّ أنّ هذه الظاهرة من الله، وأنّها درست المسألة من جميع جوانبها ولم تجد فيها غشًّا أو تلاعبًا. لكنّ الشرطة الفرنسيّة واظبت المراقبة والتقصّي حتّى كشفت احتيال المستخدَم، فسُجن وحُكم عليه بدفع غرامة مادّيّة. وأعاد جميع الأموال التي ابتزّها من سيّده.

ومن بين الأربعين ظهورًا التي رفضتها الكنيسة، خمسة ما زال المؤمنون بها يسألون السلطات الكنسيّة أن تعيد النظر في قرارها. وهذه الخمسة هي:

كيريزينين Kérizinen (فرنسا): الرسائل التي نقلتها المُشاهِدة تعطي العذراء خصالاً وقدرات لا تنال إلاّ في يسوع. مثال: «سيتمّ خلاص العالم بقلب مريم المتألّم».

سان دميانو San Damiano (إيطاليا): نالت المُشاهدة أموالاً طائلة لبناء

المدينة الورديّة بحسب رغبة العذراء، فاستثمرت المال في مشاريع أخرى. كما استغلّ الأصوليّون بعض ما جاء في الرسائل للطعن في الكنيسة وإصلاحها بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

الصليب الممجّد في دُوزُوليه Dozulé (فرنسا)، غوارابندال Guarabandal (إسبانيا)، سيّدة الشعوب في أمستردام (هولندا).

٤ ـ ديانات العالم وظهوراتها

بعد الاستعراض السريع للظهورات عبر التاريخ، لا بدّ لنا من أن نتساءل: هل تحدث الظهورات في المسيحيّة فقط أم أنّها ظاهرة تتكرّر في جميع الديانات؟

يظنّ البعض أنّ الظهورات تخصّ المسيحيّين فقط، ويعتمد البعض الآخر عليها ليثبت صحّة الإيمان المسيحيّ، وربّما ليبيّن في الآن نفسه زيف الديانات الأخرى. لكنّه يخفى على الكثيرين أنّ اعتقادات كهذه لا تسيء إلى رسالة المسيحيّة وحسب، بل تُناقض الإيمان بلامحدوديّة عمل الله، وشموليّة محبّته لجميع البشر.

في العهد القديم

ففي الكتاب المقدّس، نجد أنّ الله يلهم فرعون بالمجاعة التي ستصيب البلاد (تك ٤١/١ ـ ٣٣)، ويمنع الملاك ثلاث مرّات الكاهن الوثنيّ بلعام عن لعن إسرائيل (عد ٢٢، ٢٣)، كما يرى ملوك بابل كثيرًا من الأحلام في شأن إسرائيل ومقدّساتها، وفي ما يخصّ المستقبل. ويقرّ العهد القديم صراحةً بأنّ عمل الله يشمل جميع البشر، ولا يخصّ فئة معيّنة من الناس.

في مصر القديمة

تخبرنا أوراق البرديّ أنّ فرعون وكهنة المعابد كانوا على اتّصال دائم مع الآلهة، وكانوا يرونها وجهًا لوجه ويتحدّثون معها. فالملكة حتشبسوت سمعت الإله آمون يطلب منها أن تشنّ حملة على بلاد الذهب والعطور. وفي قادش، على

ضفاف نهر العاصي، حاصر الحثّيتون وحلفاؤهم جيش رعمسيس الثاني. فصلّى للإله آمون، وظهر له هذا وشجّعه. وفي الحلم، ظهر الإله هارموخيس للشابّ تحوتمس وأخبره أنّه سيصير ملكًا. وحين جلس هذا على العرش باسم تحوتمس الرابع، أقام مسلّة بالقرب من أبو الهول في الجيزة تذكارًا لذلك الحلم.

الديانات الهنديّة

وفي الهند، نجد في الكتب القيديّة إشارات كثيرة جدًّا إلى الرؤى التي يمكن أن ينالها الإنسان تلقائيًا، أو يثيرها من نفسه بتناوله للمهدِّئات، أو بقيامه بحركات جسديّة كالرقص أو الاسترخاء على طريقة اليوغا. وكُتب القيدا نفسها، في نظر الديانات القيديّة، هي مجموعة نصوص أبديّة عرفها الآباء من خلال ظهورات سمعيّة وبصريّة نالوها في أثناء صلواتهم.

وفي البوذيّة، رغم أنها نظام عقليّ يخلّص به الإنسان نفسه بنفسه من دائرة التجسّد المتكرّر Réincarnation، تحتل ظهورات بوذا وبوذيستافا مكانة كبيرة في الحياة الروحيّة. وهذه الظهورات هي رؤى داخليّة يكوّنها الإنسان في نفسه ليزيل أهواءه تدريجيًا، ويهدّئ أفكاره، ويصل إلى النيرفانا. والبوذيّة تؤمن أنّ الظهورات لا تأتي من خارج الإنسان بل من داخله، ومصدرها هو الشخص نفسه. أي أنّها حصيلة جهد شخصيّ بحت. وهكذا، يستطيع اليوغيّ أن يجلس في غرفة حرارتها تحت الصفر، وهو شبه عارٍ، ويجعل جسده ينضح عرقًا، إذ يتخيّل في داخله أنّه يجلس تحت أشعّة شمس الصحراء الحارقة.

الإسلام والظهورات

ويعتمد الدين الإسلاميّ في جوهره على الظهورات. فقد كان الله يرسل ملاكه جبريل ليتلو على محمّد النصوص المقدّسة. وبذلك يشبه القرآن كتب القيدا من حيث إنّه مجموعة نصوص مقدّسة أبديّة سمعها النبيّ العربيّ إبّان ظهورات نالها في أثناء تأمّلاته. ورغم أنّ المسلمين يؤمنون بأنّ محمّدًا خاتمة الأنبياء، نجد في التاريخ الإسلاميّ ظهورات كثيرة. ولو عدنا إلى الأحداث

السياسيّة في العشر السنوات الأخيرة، نستطيع أن نذكر زيارات الملائكة لآية الله الخميني، وظهور المهديّ لجعفر النميريّ رئيس الجمهوريّة السودانيّ قُبَيل سقوطه عن الحكم، وظهور الرسول العربيّ لصدّام حسين قبيل اشتعال حرب الخليج، وظهور كلمة «الله أكبر» في أثناء صلاة الجمعة حين بدأ عبّاسي مدني حركته الإسلاميّة في الجزائر.

الديانات البدائيّة

أمّا الديانات البدائيّة، أي تلك التي تؤمن بوجود قوى فوق طبيعيّة دون أن يكون لها قالبٌ محدَّد على نحو الديانات الكبرى، فإنّ الظهورات والمعجزات فيها تتمّ بحسب رغبة الساحر بعد أن ينال مُوافقة الجماعة وإيمانها بقدرته على القيام بما هو خارق للطبيعة. وتبيِّن الدراسات الأنتروبولوجيّة الحديثة أنّ إيمان هذه الديانات ليس محض خرافات. ففي كلّ قبيلة من قبائل أفريقيا وأمريكا اللاتينيّة أشخاص يطلق عليهم اسم السحرة. وقد أثبتت المراقبة الموضوعيّة أنّ لهؤلاء قدرة حقيقيّة على شفاء المرضى من خلال السحر وبطرق غير علميّة.

فقد لاحظ الأب إيريك ده روني اليسوعيّ الفرنسيّ، أثناء إقامته في دوالا (الكاميرون)، أنّ السحرة يتّصلون بأرواح الأجداد ليحرِّروا المريض من الشرّ الذي استولى عليه وسبّب له المرض: «أنام: أنام، وأرى، كما في الحلم، حماقات الشر. فأمكث ساكنًا وأحلم... وإذا حضر النور، أشعر بالسعادة، وأرى كيف أعالج المريض، وكيف أصارع روح الشرّ». وقد تعلّم الأب ده روني فنّ الشفاء هذا، ومارسه، ونجح في شفاء عِلل كثيرة من خلال اتّصاله بأرواح الأجداد.

ولاحظ عالِم الاجتماع الشهير ليفي شتروس Lévi-Strauss ظاهرة مشابهة عند سحرة قبائل الهنود الحمر في القارّة الأمريكيّة: إتّصال الساحر بالأرواح، الحديث مع الأجداد، ومعجزة الشفاء من المرض.

وهكذا نجد أنّ الظهورات موجودة، من حيث الشكل على الأقلّ، في كثير من الديانات غير المسيحيّة. ولا تقف المسألة عند هذا الحدّ. فالعلوم النفسيّة تؤكّد بدورها على أنّ المشافي النفسيّة تشهد ظواهر مشابهة للظهورات لدى المرضى.

٥ ـ الظهورات والأمراض النفسيَّة

آراء علم النفس

يصادف علماء النفس في بعض الأحيان أمراضًا عصبيَّة ينتج عنها أمور غريبة مدهشة لا يمكن تفسيرها. وتشبه هذه الأمور عناصر الظهورات الثلاثة: الرؤية والسمع والمعجزة. وقد اصطُلح على تسميتها بـ «حالات ما وراء النفس» Métapsychique، أي الحالات التي تفوق إدراك علم النفس: التخاطر Télépathie، التنبؤ.. وبسبب الغموض الذي يحيط هذه الحالات النفسيَّة، ينقسم علماء النفس إلى فريقين: فريق يعتبرها أمورًا خارجيَّة من إنتاج ما هو في داخل الإنسان، وهي أكثر سموًّا وأرقى من العناصر التي ولَّدتها، وآخر يعتبرها صورة مشوَّهة لأمور سامية عليا، فهي تدنٍّ وانحطاط.

ومهما يكن الأمر، فإنّ القدِّيس بولس وكثيرًا من علماء النفس يقسمون الإنسان إلى ثلاثة مستويات: المستوى الجسديّ Niveau somatique، والمستوى النفسيّ Niveau psychique أو الوسيط، والمستوى الروحيّ Niveau pneumatique. والحالة الماوراء نفسيّة تنتج في عمليّة الانتقال من مستوى إلى آخر، وهي عمومًا الانتقال من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى. فعلاقة الإنسان مع الأشياء هي علاقة مزدوجة تتم بواسطة الحواس والفكر. فالأذن تسمع وتصغي، والعين تنظر وترى. وحين يزور اثنان بناء أثريًا ويشاهدانه جملة وتفصيلاً، يمكن لأحد هما أن لا يعير إلاّ إلى مجموعة حجارة قديمة. أمّا الآخر، فيرى عظمة الباني وجمال حسّه الهندسيّ. وحين يكون الفارق في الرؤية كبيرًا، أي حين يرى الواحد ـ أو يظنّ أنّه يرى ـ ما لا يشاهده جاره، يقول الجار إنّ هذه الرؤية هلوسة وجنون. وكذلك الأمر في باقي الحواسّ.

ومن وجهة النظر السريريّة، فإنّ ظواهر الإعاقة عند بعض الأشخاص، كالمرض العصبيّ أو الجنون، هي في بعض الأحيان سبب لظواهر مدهشة وغريبة: رؤى، تنبّؤ... كأنّ المرض والبلوسة والجنون تقود هؤلاء الأشخاص إلى درجات عالية من الذكاء والإرادة والحسّ. ولهذا قيل: «بين العبقريّة والجنون شعرة

واحدة». فالمجنون يرى في بعض الأحيان شخصًا أمامه فيتحدَّث معه. أمّا الناس، وإذ يرونه وحيدًا، فيقولون إنّه مجنون لأنّه يتحدَّث مع نفسه.

الانخطاف والأمراض العصبيّة

تحدَّثنا منذ قليل عن تقسيم الإنسان إلى مستويات ثلاثة، وقلنا إنّ الانتقال من مستوى إلى آخر يرافقه اضطراب وتخلخل. ويظهر هذا في بعض الأحيان على شكل انخطاف. فيفقد الشخص كلَّ اتّصال بالعالم الذي يحيطه، ويبقى ساكنًا بدون حراك، ولا يعمل في جسمه إلاّ العضلات غير الإراديّة.

والانخطاف في نظر المراقبة السريريّة هو ظاهرة ثانويّة تنتج إثر ظاهرة أخرى: رؤية، تأمُّل، نوع من أنواع التسمّم. فحين أُشاهد فيلمًا ويشدّني موضوعه، لا أحرّك جسمي، ولا أعي لحركة من هم بجانبي. فأنا إذًا في حالة انخطاف نسبيّة. ومن بين الانخطافات المرضيّة يمكننا أن نذكر:

الحالات السباتيّة Léthargies والتصلُّب Catalepsies: وهما حالتان مرضيّتان متشابهتان تتميّزان بنوم عميق وطويل الأمد، يفقد الإنسان في أثنائه القدرة على التحكّم بعضلاته الإراديّة.

النوم المُفتعَل Hypnotique: يرى المريض في لاوعيه صورًا وأشكالاً تشغل فكره بكامله. ويمكنه أيضًا أن يسمع أصواتًا أو أن يلمس أجسامًا لا وجود لها في الحقيقة.

المشي في النوم Somnambulisme: يستطيع الشخص الذي يمشي في نومه ــ وهي حالة مرضيّة ــ أن يؤلّف في بعض الأحيان أشعارًا أو خطابات تفوق كثيرًا قدراته الفكريّة. ويمكن أن نضمّ إلى هذه الفئة الأشخاص الذين تحت تأثير التنويم المغناطيسيّ. ويعطينا الأستاذ فلورنوا Flournoy مثالاً على ما يمكن لمصاب بمرض المشي في أثناء النوم أن يقوم به. فالسيّدة هيلين سميث Hélène Smith «كانت تتكلّم في نومها، وتكتب، وتروي رؤى. أمّا صحّتها فكانت ممتازة، وعقلها في كامل اتّزانه». وقد وصفت هيلين سميث بلاد الهند وصفًا

دقيقًا في رواية ألّفتها بأسلوب أدبيّ رائع، وهي نائمة، مع أنّها كانت ذات ثقافة عاديّة، ولم تزر الهند قطّ في حياتها، ولا شاهدت لتلك البلاد صورًا أو سمعت عنها أخبارًا.

تأثير المخدِّرات Stupéfiants: يفقد متعاطي المخدِّرات السيطرة على أفعاله الإراديّة، كما يفقد الإحساس، ولا يعمل في جسمه إلاّ العضلات اللاإراديّة والخيال. ويعطي الأفيون والحشيش شعورًا بالعظمة، فيكبّر حجم الأشياء حتّى إنّ البيت الصغير يبدو قصرًا، ويتباطأ الزمن فتصبح الدقيقة عصرًا والساعة دهرًا. وتحوّل بعض المخدِّرات المكسيكيّة الأشياء في نظر المدمن إلى لآلئ براقة. وتثير مادّة الأثير في مخيّلة بعض الأشخاص رؤى ذات طبيعة تأمّليّة أو فلسفيّة، فيحلّق المرء في الأعالي، ويرى أنّ همومه وشكوكه التي كانت تستولي عليه قد تبدّدت. ويشعر مَن استنشق برونوكسيد الآزوت أنّ حقائق ما وراء الطبيعة قد انجلت أمامه بوضوح شديد في جميع أبعادها وأعماقها السحيقة.

حالات ما وراء النفس: Métapsychique

ما وراء النفس النفسيّ Métapsychique psychologique: وهو القدرة على إدراك ما تعجز الحواس وقدرات العقل عنه: العلم بما يفكّر فيه الآخرون، معرفة أشياء موجودة داخل علب محكمة الإغلاق ثخينة الجدران، التنبّؤ بحدث سيتمّ بعد زمن أو في مكان بعيد.

ما وراء النفس الماديّ Métapsychique matérielle: وهو القدرة على القيام بأعمال يستحيل على الإنسان العاديّ أن يقوم بها: رفع أو نقل أو رمي أو إخفاء الأشياء دون لمسها، إظهار نور أو شرر أو أشكال بشريّة.

وتخبرنا حوليّات جمعيّة البحث النفسيّ أنّه تمّ رصد حالات اتّصال بين أفراد يعيشون في أماكن متفرّقة من العالم دون استعمال وسائل الاتّصال المعروفة. وهذا يثبت فكرة أنّ في الإنسان طاقات كامنة، يتمكّن بعض الأشخاص من استخدامها بطريقة أخرى تجعلهم يتّصلون بالواقع اتّصالاً غير طبيعيّ. وتأتي قدرة الإنسان على هذا الاستخدام الثانويّ من إمكانيّات خارقة يتمتّع بها، أو من مرض يخلّ بتوازن جسمه وينقله من مستوى إلى آخر في مستويات الإنسان الثلاثة.

التنبؤ والوساطة: Prédiction et médium

تثبيتًا لِمَا قلناه سابقًا عن قدرات النفس، دعونا نرى ما يقوله علم ما وراء النفس في التنبؤ والوساطة.

التنبؤ هو معرفة ما سيتمّ في المستقبل دون أن يكون ذلك نتيجة منطقيّة لأحداث الحاضر. وللتنبؤ وجهان: إحتماليّ وحتميّ. وقد لاحظ الباحثون وجود حدود للتنبؤ: فالدقّة في سرد التفاصيل تعلّق عكسًا بعمق الموضوع المتنبأ به وصعوبته، وبقرب حياة الأشخاص من زمن التنبؤ. فالحديث عن مستقبل حياة قد تحقّق جزء منها هو أسهل وأدقّ من الكلام عن حياة لم تبدأ بعد: مستقبل حفيد شابّ أعزب مثلاً. فكلّما تناولت النبوءة حياة بعيدة في الزمن ازدادت الغباشة وشحّت التفاصيل. فمثل القدرة على التنبؤ كمثل الطاقة: يقلّ تأثيرها مع ازدياد المسافة بينها وبين العنصر المتأثّر، أو طول زمن تطبيقها. وهذا ما يدعّم فكرة طاقات الإنسان الكامنة التي تمكّنه من القيام بأعمال غير مألوفة في الحياة الطبيعيّة.

الوسيط هو شخص يقوم بأمور عجيبة مدهشة في جلسات تدعى «جلسات ما وراء النفس». وتضمّ أفرادًا قليلين في مكان مُعتِم أو ذي إنارة شديدة الانخفاض. وفي هذه الجلسات، يبذل الوسيط قصارى جهده ليقدّم للحاضرين ما يرغبونه. وما هذا الجهد إلاّ محاولة لإطلاق الطاقات الكامنة في النفس. وقد أثبت الأستاذ تونكيدك Tonquédec، ومن بعده كثير من علماء النفس، أنّ جسم الإنسان يرسل موجات تؤثّر على الأشخاص الآخرين. فيشعرون بالرهبة أمام هذا، وبالارتياح مع ذاك.

ويتمتّع بعض الأشخاص بالقدرة على إرسال موجات مركّزة وقويّة. فيتمّ الاتّصال عن بعد Télépathie، أو تحريك الأشياء دون لمسها، أو إظهار رؤى للحاضرين. وتساعد الظلمة أو النور الخافت على حدوث هذه الأمور. ويشير الباحثون في ما وراء الطبيعة أنّ قلّة ضئيلة من الناس يستطيعون أن يحصلوا على نتائج جيّدة في وضح النهار. ويستخدم الوسيط في بعض الأحيان شيئًا يركّز انتباهه عليه: كرة من الكريستال، صورة... أو يستسلم إلى الكتابة التلقائيّة.

ويدخل في غيبوبة تتفاوت في درجتها، وتشبه مراحلها الأولى أحلام اليقظة، وبهذا يبتعد بعض الشيء عن الجوّ العامّ الذي يحيط به.

التفسيرات الطبّيّة

إذا كان العلم يعجز حتّى الآن عن شرح الظواهر الغريبة التي تحدّثنا عنها لنؤنا شرحًا كافيًا، فإنّه يستطيع على الأقلّ تفسير آليّة حدوثها. فبحسب وجهة النظر الطبّيّة، كلّ أمر مزعج يبقى في الذاكرة بسبب تغيّرات فن جسم الإنسان تؤثّر على قواه المتنوّعة: التأثّر الشديد من موقف معيّن، الحسّاسيّة المفرطة، التعب الجسديّ، كثرة المشاغل الفكريّة والجسديّة، جميع أنواع الأمراض، خصوصًا أمراض الجهاز الهضميّ، قلّة النوم، سماع الأخبار السيّئة، الثورة والغضب، عسر الهضم. جميع هذه الأمور تولّد اضطرابات نفسيّة كافية لكي يرى المصاب رؤى ويسمع أصواتًا وكأنّ الأمر يحدث فعلاً في العالم المادّيّ.

ويشرح الأستاذ أوريزُون Oraison آليّة هذه الظواهر فيقول:

«يوافق الإحساس المرئيّ أو السمعيّ تغيّرات كيميائيّة دقيقة Microchimie متفاوتة الشدّة وكثيرة التعقيد لخلايا الطبقة الخارجيّة للدماغ، وفي المنطقة البصريّة أو السمعيّة». فالظهورات تتمّ إذًا في هذه الخلايا. تحدث هذه التغيّرات الكيميائيّة لأسباب نجهلها، وتؤثّر على خلايا النظر أو السمع، فيترجمها المخّ على أنّها أمور حقيقيّة. وقد بدأ علم الكيمياء الخلويّ والدراسات الحديثة للتأثيرات العصبيّة بفهم هذا النظام. وتبيّن أنّ هناك علاقة بين الحياة العاطفيّة وتولّد هذه السيّالة العصبيّة. وعلى هذا الأساس، فإنّ للاضطرابات التي ذكرناها من قبلُ دوراً هامًّا في ولادة الرؤى وسماع الأصوات من المخيّلة.

٦ ـ معنى الظهورات

التدخُّل الإلهيّ في الظهور

بعد الاستعراض السريع للظهورات في الديانات غير المسيحيّة، وفي مشافي الأمراض النفسيّة، يتساءل المرء: ما هي مكانة الظهورات المسيحيّة وخصوصيّاتها في إيمان الكنيسة وتاريخنا الحديث؟ وهل التشابه بين الظهورات وما يجري عند بعض المرضى النفسيّين ينفي أصل الظهورات الإلهيّ؟

تحدَّثنا في المقدّمة عن موقف الأصوليّين من الظهورات، ومحاولة استغلالها للبرهان على صحّة الإيمان المسيحيّ وزيف الديانات الأخرى. لقد خفي على هؤلاء التعارض بين فكرة الإله الواحد للكون كلّه والخلاص الشامل لجميع البشر الذي وهبنا إيّاه الابن مع فكرة الخصوصيّة التي يحاولون نشرها وتدعيمها، باعتقادهم أنّ الله لا يعمل إلاّ في جماعة بشريّة محدودة وهي الجماعة المسيحيّة. فالكتاب المقدّس في عهديه القديم والجديد، لا يكفّ عن ذكر عمل الله في الوثنيّين، وكيف تشمل محبّته جميع البشر. ولعلّ سيرة اهتداء قائد المائة قرنيليوس، خير برهان على ذلك (رسل ١٠، ١١).

أمّا وجود حالات مشابهة للظهورات في العيادات النفسيّة ودراسات علوم ما وراء الطبيعة، فهو دليل على أنّ الله يستخدم قوانين الطبيعة ليتّصل بالإنسان. وحين نقول علم ما وراء الطبيعة، أو ظواهر غير طبيعيّة، لا نعني بذلك أمورًا تخرق قوانين الطبيعة وتخرج عنها، بل أمورًا تحدث وفقًا لقوانين الطبيعة التي لا نعلم منها حتّى الآن إلاّ الشيء اليسير. هذا ما يؤكّده علم النفس حين يقرّ بأنّ معرفتنا لقوانين الطبيعة ناقصة وغير كافية لشرح جميع أبعاد النشاط الإنسانيّ. ويعرِّف علم ما وراء الطبيعة بأنّه علم يلاحظ الظواهر التي لم يتوصّل العلم بعد إلى شرح ماهيّتها ويدرسها. فمثل عمل الله في الظهورات إذًا كمثل عمل إنسان القرن العشرين: يسخّر الطبيعة ويستثمر ما فيها من غنى لينتج شيئًا جديدًا رائعًا. فمَن منّا يستطيع أن يقول إنّ إنتاج الأدوات البلاستيكيّة تمّ وفق قوانين خارقة للطبيعة؟ وماذا تظنّ القبائل البدائيّة في الأمازون حين ترى طائرة تحلّق في السماء

فوقها؟ إنّ حالنا مع الظهورات كحال تلك القبائل، وحين يُعرف السبب يزول العجب.

وعلى هذا الأساس، نعرّف الظهور على النحو التالي: حين يتّصل الله بالبشر، فإنّه يستخدم جميع إمكانيّات الخيال والذكاء عند الإنسان، خصوصًا حين يكون في حالة انخطاف، أي خارج عالم الواقع، وفي مجال تتحوّل فيه اللاموضوعيّة Subjectivité إلى موضوعيّة Objectivité. وهذا التحوّل طبيعيّ من حيث الآليّة النفسيّة. لكنّه يصبح فوق طبيعيّ بفضل تدفّق النعمة التي أحدثته، والتي بثّت فيه أمرًا لا يمكن للعلم أن يلاحظه لأنّه من النوع الروحيّ المحض.

أمر مدهش أو علامة؟

«عندما رشح الزيت من بعض الصور والتماثيل في دار العجزة، جاءت الناس أفواجًا لتعاين ما جرى، واكتظّ المكان بالزوّار طوال النهار. والآن، بعد مضيّ سنتين على هذا الحدث، فإنّك، حين تذهب لرؤية الصور والتماثيل التي ترشح زيتًا، لا تصادف زائرًا واحدًا فيها أو متعبّدًا أمامها». إنّ هذه الشهادة تبيّن مراحل تأثير الظهورات في الناس. فهي تثير الدهشة والعجب في البداية. ومع مرور الزمن، يترك الانبهار مكانه لشعور آخر أكثر ثباتًا وأقلّ تعجّبًا. وهو أمر تعوّدنا عليه مع ظهور الاختراعات الحديثة. فبعد أن نبهر بها وتشغل كلّ تفكيرنا، تتعوّد عليها ونجد لها مكانًا صغيرًا في حياتنا اليوميّة. وتبقى على هذا النحو إلى الأبد.

لم يسمِّ الإنجيليّون الأعمال غير الطبيعيّة التي قام بها يسوع أعاجيب، بل أطلقوا عليها اسم علامات Sémeia أو أعمال Erga، ليُنبّهوا القارئ إلى أنّ المعجزة هي علامة قبل أن تكون حدثًا عجيبًا. وحين جاء الشيطان ليجرّب يسوع في البرّيّة (متّى ٤/١ ـ ١١)، لم يهاجم قدرة يسوع على اجتراح المعجزات، بل حاول أن يدفعه إلى استعمال هذه القدرة ليقوم بما هو مدهش وعجيب بدلاً من أن يستخدمها علامةً لحضور الملكوت. ويشير متّى الإنجيليّ إلى أنّ هذه التجربة

كانت تتكرّر بعد كلّ معجزة يقوم بها يسوع، حين يحاول الشعب أن ينادي به ملكًا. حتّى إنّه امتنع عن القيام بالمعجزات في أواخر أيّام حياته، وكان يؤنّب الذين يتبعونه من أجل المعجزات التي يقوم بها لا من أجل تعاليمه.

وإذا كان جوهر المعجزة هو العلامة التي على المؤمن أن يلاحظها، فإنّ هذا لا يعني بأيّ شكل من الأشكال عدم أهمّيّة الدهشة والانبهار في شفاء مقعد، أو إقامة ميّت، أو تكثير خبز. ولكنّه يتوجّب علينا أن نعرف جيّدًا طبيعة ذلك الأمر المدهش وغايته، وهل جرى الحدث لأجل الدهشة فقط أم إنّه علامة أرسلها الله لنا وينتظر منّا الجواب. فالقدّيس أوغسطينُس يقول في هذا الصدد: «إنّ معجزات يسوع هي ظهورات مرئيّة لِمَا هو غير مرئيّ». ولهذا كان يسوع يربط بين المرئيّ وغير المرئيّ، بين المدهش والعلامة. فحين شفى الأعمى تكلّم عمّن لهم عيون ولا يرون (يو ٩/٣٩ ـ ٤٠) وحين كثّر الخبز تكلّم عن خبز الحياة (يو ٦). ولعلّ أكثر المعجزات برهانًا على ذلك الربط هي شفاء المقعد في كفرناحوم (مر ٢/١ ـ ١١). فحين شفى يسوع النفس: «يا بُنَيّ، غُفِرَت لك خطاياك»، لم يؤمن الشعب بهذا الشفاء وطلب علامة. فقال يسوع: «قم فاحمل فراشك واذهب إلى بيتك».

فالظهورات المسيحيّة إذًا، ورغم كلّ ما يحدث فيها من أمور عجيبة مدهشة، هي علامات على المؤمنين أن يفهموها. ولا يكون للظهورات قيمة أو معنى دون ذلك.

٧ ـ الظهورات وتعليم الكنيسة

من أوغسطينُس إلى توما الأكوينيّ

على الرغم من حذر القدّيس أوغسطينُس ومواقفه المحافظة في شأن الظهورات، استمرّ فهم المؤمنين لِمَا هو فوق الطبيعة في الازدياد. وقد أثّر هذا الأمر في التعليم المسيحيّ وسِيَر القدّيسين تأثيرًا بالغًا. وفي أيّام الآباء المدرسيّين (السكولاستيك)، نجد القدّيس توما الأكوينيّ يخصّص، مثل سائر معلّمي

الكنيسة في عصره، عدّة صفحات لمعالجة موضوع الظهورات في كتابه «الخلاصة اللاهوتيّة». وقامت فكرته الأساسيّة على أنّ الرسائل التي ينالها بعض الأفراد في انخطافاتهم لا تزيد أيّ حقيقة على الوحي الكتابيّ، لأنّ يسوع أتمّ الكتب وكشف لنا كلّ شيء. ورسائل الظهورات هي توصيات لممارسة بعض الأعمال التقويّة لتقدُّم حياة المؤمن الروحيّة وخلاص نفسه. ويمكن للإنسان أن يخضع لهذه التوصيات إذا رأى أنّها مفيدة له. ويكون خضوعه لها إنسانيًا، أي أنّه يكون باختياره ولا يجبر به جميع المؤمنين.

عصر الإصلاح البروتستانتي

تميّزت نهاية العصور الوسطى بنموّ حركات تقويّة، خصوصًا في إسبانيا، نموًّا سريعًا. واستفاد زعماء هذه الحركات من انتشار الجهل والاضطرابات لينشروا رؤاهم الأخيريّة Eschatologiques، فأثاروا قلق السلطات الكنسيّة. وفي مجمع لاتران Latran الذي عقد سنة ١٥١٦، أصدر الأساقفة الوثيقة التالية لتنظيم مراقبة الظهورات:

«نريد منذ الآن، وبحسب القانون العاديّ، أن يُحفَظ حقّ البتّ في أمر الإلهامات للكرسيّ الرسوليّ، قبل نشرها أو إعلانها للمؤمنين. وإذا لم يكن الانتظار ممكنًا، أو أملت الضرورة الملحّة القيام بشيء مخالف، تحوَّل المسألة إلى الأسقف المحلّيّ... فيجتمع هذا مع ثلاثة أو أربعة أشخاص ضليعين في شؤون العقيدة، ويدرس معهم هذه المسألة دراسة دقيقة. فإذا رأوا أنّ ما بين أيديهم مناسبًا، ونحن نعتمد في هذا على ضميرهم، يستطيعون أن يمنحوا الموافقة».

ورغم أهمّيّة هذه الوثيقة، إلاّ أنّها جاءت متأخّرة جدًّا. فقد كان لوثر يدرّس الكتاب المقدّس في جامعة ڤيتنبرغ Wittenberg، ويحضّر احتجاجاته الخمسة والتسعين التي ستولّد الانشقاق في الكنيسة. فتحت شعار «الكتاب المقدّس فقط Sola Scriptura»، انتقد لوثر بشدّة الرؤى والظهورات المنتشرة في عصره، وأشار إلى انحراف الإيمان الذي حدث بسببها: «الآن، وقد صارت الكتب المقدّسة لدينا، لم يعد هناك شيء آخر يكشف لنا. فنحن لسنا بحاجة إلى

إلهام يُضاف إلى ما كتبه الرسل... فلنتمسك ببشارة الروح القدس وإلهامه، لأنّه الوحيد الذي يقول لنا ما علينا أن نعرفه».

وكان للمتصوّفين الإسبان موقفٌ مشابه من حيث التشدُّد تجاه الظهورات. فيوحنّا الصليب، الذي عاش في القرن نفسه، رفض رفضًا شديدًا أن تُعتبر كتاباته إلهامات: «لأنّه أعطانا ابنه وهو كلمته الوحيدة... وأخبرنا وكشف لنا جميع الأمور مرّة واحدة في كلمته، ولم يتكلّم مرّة أخرى... وبالنتيجة، مَن أراد محادثة الله اليوم، أو طلب منه رؤية أو إلهامًا، فإنّه لا يرتكب حماقة فقط، بل يهين الله، لأنّه كفّ عن تثبيت نظره في يسوع، وأراد شيئًا آخر جديدًا». ويبالغ القدّيس يوحنّا الصليبيّ في تشدُّده، في الفصل السابع والعشرين من كتابه المُعَنْوَن **الصعود إلى الكرمل**، ويطلب من المؤمن أن لا يكتفي برفض هذا النوع من الإلهامات، بل أن يقاومها حين يشعر بها في نفسه.

وأدّت حركة الإصلاح البروتستانتيّ إلى ظهور تيار كاثوليكيّ متعصّب، بالغ في ذكر الظهورات. فكثرت التصوّر العجائبيّة، وأخبار المعجزات والرسائل السماويّة. وخافت السلطات الكنسيّة على الإيمان من الانحراف، وأعادت في المجمع التريدنتينيّ ما سنّته من شرائع للظهورات في المجمع اللاتيرانيّ، وأضافت: «لا تُقبَل أيّ معجزة جديدة بدون اعتراف الأسقف بها وموافقته عليها. فهو حين يعلم بحدوثها، يستشير اللاهوتيّين وأشخاصًا آخرين من الأتقياء، ويقوم بما يراه موافقًا للحقيقة والتقوى. وإذا اضطرّ الأمر إلى استعمال ممارسة شاذّة مشكوك في أمرها، أو إذا طُرِحَت بعض المسائل الخطرة في القضيّة المدروسة، على الأسقف أن ينتظر رأي رئيس الأساقفة وباقي الأساقفة من أعضاء المجمع الإقليميّ، قبل أن يعلن ردّه على المسألة. ولا يتمّ إقرار أيّ جديد دون العودة إلى الكرسيّ الرسوليّ».

ونلاحظ هنا أنّ موقف الكنيسة من الظهورات تغيَّر تغيُّرًا كبيرًا في الفترة القصيرة التي تفصل مجمعَي لاتران وترانت. وربّما كان ذلك بسبب الانشقاق البروتستانتيّ وانتقادات المنشقّين لبعض أنواع العبادات التقويّة. ويمكننا أن نحصر هذه التغيّرات في نقاط ثلاث:

١ ـ إهتمّ مجمع لاتران بتنظيم مسألة الإلهامات، بينما شغلت المعجزات مجمع ترانت.

٢ ـ لم يرِدْ ذكر للحالات الاضطراريّة في الوثيقة الثانية.

٣ ـ أوصت الوثيقة الأولى بإرسال جميع القضايا إلى الكرسيّ الرسوليّ، ولا يتّ الأسقف في الأمر إلاّ في حالات الضرورة القصوى. أمّا الوثيقة الثانية فقد سلكت طريقًا عكسيًّا.

الوثائق المجمعيّة والبابويّة

في القرن السابع عشر، اقتفى الباحثون في الروحانيّات أثر المتصوّفين الإسبان، وصنّفوا الظهورات على أنّها ظواهر ثانويّة في التصوّف. كما تنادى اللاهوتيّون الحديث عنها، ولم يذكروها إلاّ عرضًا في كلامهم عن الإيمان والنبوءة. ولكن انتقادات البروتستانت الشديدة أجبرتهم على معالجة موضوع الظهورات من أجل وضع قواعد لتمييز الصالح فيها عن الفاسد. ومن بين المقالات الكثيرة التي تناولت هذا الموضوع، انتشرت ثلاث منها انتشارًا واسعًا، وكتّابها هم: دومينيك غرافينا Dominique Gravina الدومينيكاني (نابولي ١٦٣٨)، وأوسابيوس أمور Eusèbe Amort الأوغسطينيّ (أوغسبورغ ١٧٤٤)، والأب نيقولا لنغليه ـ دوفرنوا Abbé Nicolas Lenglet - Dufresnoy (باريس ١٧٥١).

وأهمّ مقالة عن الظهورات في ذلك العصر كانت للقانونيّ لوران لامبرتيني Laurent Lambertini الذي صار في ما بعد البابا بنديكتس الرابع عشر (١٧٦٩ ـ ١٧٧٤). وقد وردت هذه المقالة في كتابه **في تطويب خدّام الله** *(De servorum Dei beatificatione et beatorum canonisatione)*:

«إنّ موافقة الكنيسة على ظهورٍ ما تعني فقط إعطاء الإذن، بعد فحص دقيق، في نشر هذا الظهور لتثقيف المؤمنين وفائدتهم. ورغم موافقة الكنيسة، علينا أن لا نقبل هذه الظهورات كما نقبل الإيمان الكاثوليكيّ، بل أن نقبلها قبول إيمان بشريّ، بحسب ما يمليه علينا واجب الحذر، وبحسب احتمالات هذه الظهورات التي يمكن للتقوى أن تؤمن بها.

... وفي النتيجة، يحقّ لنا أن نرفض هذه الظهورات، وأن نبتعد عنها، شرط أن يتمّ ذلك بتواضع مناسب لأسباب فاضلة، وبدون احتقار».

وتعتبر هذه الوثيقة من أهمّ ما كُتِب في الظهورات، لأنّ المكانة القانونيّة التي حدَّدها الأب لامبرتيني للظهور بقيت كما هي حتّى يومنا هذا. فالمسألة لم تعد: مَن له السلطان للبتّ في كون ظهورٍ ما من مصدر إلهيّ أم لا، بل: ما هي مكانة الظهورات في الإيمان المسيحيّ. وهنا يمكننا أن نشيد بجرأة الأب لامبرتيني ووضوحه. فقد ميَّز بين نوعَين من الإيمان: واحد لا يمكن للإنسان أن يكون مسيحيًّا بدونه: وهو الإيمان بأنّ المسيح هو ابن الله، والإيمان بعقيدة الثالوث، وبالتجسُّد، بالفداء... وقد أطلق عليه اسم الإيمان الكاثوليكيّ، وهو تعبير يكافئ في أيّامنا ما نسمّيه الإيمان المسيحيّ. وآخر يمكن للفرد أن يكون مسيحيًّا بدونه، لكنّه مفيد للحياة الروحيّة: وهو التساعيّات، وصلاة المسبحة، والتبرُّك من الصور الدينيّة... وسمّاه الإيمان البشريّ. وصنّف الظهورات مع الإيمان البشريّ لأنّه لا يمكنها أن تضيف شيئًا جديدًا على ما أعلنه الإنجيل، بل تقترح أفعالاً تقويّة وصلوات من شأنها أن تساعد المؤمن في حياته الروحيّة. وبهذا أكّد الأب لامبرتيني ما قاله القدّيسون أوغسطينُس وتوما الأكوينيّ ولوثر، وساغه في نصّ قانونيّ رعويّ واضح.

وفي السادس من شهر شباط (فبراير) ١٨٧٥، أي بعد حوالى قرن من الزمن، جاء ذكر الظهورات في ردّ لمجمع الطقوس Congrégation des Rites على استشارة طلبها رئيس أساقفة سانتياغو في الشيلي بشأن سيّدة الرحمة Notre-Dame de la Merci. وجاء في الردّ:

«لا يقرّ الكرسيّ الرسوليّ الإلهامات أو الظهورات ولا ينفيها، ولكنّه يسمح فقط بالإيمان بها تقويًّا وبإيمان بشريّ، وفقًا لِمَا ترويه شهادات أهل الثقة وتؤكّده».

كما أعطي ردّ مماثل في الثاني عشر من شهر أيّار (مايو) ١٨٧٧، للأساقفة الذين طلبوا من الكرسيّ الرسوليّ إقرارًا رسميًّا بظهورات لورد Lourdes والساليت La Salette. وفي الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٠٧، ذكّر البابا بيوس العاشر في رسالته الجامعة Pascendi بموقف الكنيسة من الظهورات: «وفي ما يختصّ بالتقاليد التقويّة، فإنّ الكنيسة تمنع منعًا باتًّا، من باب الحذر، أن تُروى

هذه التقاليد في كتب عامّة دون أخذ الاحتياطات اللازمة... كما أنّ الكنيسة لا تضمن، حتّى في هذه الحالة، صحّة ما يُروى، ولكنّها لا تمنع الإيمان بها إذا لم يتعارض مع دوافع الإيمان البشريّ». وقد قصد البابا بكلمة «التقاليد التقويّة» جميع الروايات الملحميّة التي كانت تروى عن القدّيسين والظهورات، كالقدّيس جاورجيوس حين قتل التنّين، وظهور مار الياس على سارق الدير ليشلّ له يده...

نلاحظ في هذه الرسالة الجامعة وجود عنصرين جديدَين في موقف الكنيسة من الظهورات:

١ ـ لا تضمن الكنيسة حقيقة حدوث الظهور رغم موافقتها عليه.

٢ ـ للظهورات في الإيمان المسيحيّ دور يماثل دور الذخائر والأيقونات والممارسات التقويّة.

وفي الثامن عشر من شهر شباط (فبراير) ١٩٥٩، أعطى البابا يوحنّا الثالث والعشرين خلاصة نظرة الكنيسة إلى الظهورات في خطاب ألقاه لمناسبة العيد المئويّ لظهورات لورد. وراعى البابا في كلمته الحساسيّات المختلفة في هذ الموضوع، وحاول أن يجد حلاً وسطًا يرضي المؤيّدين والمعارضين:

«إنّ البابوات قد أخذوا على أنفسهم أن ينصحوا المؤمنين بالانتباه ـ إذا رأوا بعد دراسة وعناية أنّ هذا يناسب الخير العامّ ـ إلى الأنوار الفوق الطبيعيّة Lumières surnaturelles التي راق لله أن يخصّ بها بعض النفوس المختارة، لا ليعلّم عقيدة جديدة وبل ليقود مسيرتنا». وقد جاء هذا الإعلان بعد بداية إرهاصات الثورة عند مؤيّدي الظهورات، بسبب صمت الكنيسة الطويل، وعدم إدلائها برأيٍ في ما يختصّ بكثير من الظهورات التي حدثت بعد سنة ١٩٣٣.

علوم اللاهوت والظهورات

اللاهوت العقائديّ يعرّف الظهورات بأنّها زينة لا ضرورة لها، أو خيالات مجّانيّة فانية. ويرى هذا اللاهوت أنّه يستحيل الاعتماد على الظهورات لإعلان عقيدة من العقائد أو تبريرها.

اللاهوت الأساسيّ يضع الظهورات في آخر القائمة، وكثيرًا ما يهملها. ملكيور كانو Melchior Cano لا يذكرها من بين المجالات اللاهوتيّة العشرة الأساسيّة ولا حتّى من بين المجالات الثانويّة الملحقة كالفلسفة والحقوق والتاريخ.

اللاهوت الكتابيّ لا يمكنه أن يقارن بين الوحي الإلهيّ المدوَّن في الكتاب المقدَّس والإيحاءات اللاحقة التي ينالها بعض المسيحيّين في الظهورات. ويجبر تحديد الكتب المقدَّسة دارسي الكتاب المقدَّس على إهمال جميع النصوص الأخرى، سواء أكانت سابقة أم لاحقة لعصر الكنيسة الرسوليّة.

اللاهوت الأدبيّ ابتعد عن هذا المضمار المبهم الغامض رغم أنّ أثر الظهورات على سلوك الناس موضوع يخصُّه. وسبب ابتعاده هو أنّ الرسائل التي يتلقّاها المُشاهد تأتي بشكل أوامر للقيام بسلوك معيَّن: صوم، صلاة السبحة... وما من شأنه أن يجمِّد الأحكام الأخلاقيّة ويحوِّل مسؤوليّة المؤمن إلى مجموعة واجبات عليه تطبيقها حرفيًّا.

اللاهوت التصوُّفيّ يخلص لتعاليم التدّبس يوحنّا الصليبيّ، ويحذِّر من الظهورات ويعتبرها ظواهر ثانويّة وقتيّة ثانية. وتاريخ اللاهوت التصوّفيّ هو تاريخ خفض قيمة الظهورات، ولو نظريًّا، ورفع قيمة التأمّل النظريّ الصافي غير النبويّ.

اللاهوت الروحيّ يحذِّر من المواهب الاستثنائيّة التي قد تولِّد أناجيل جديدة أو عنصرات أخرى، والتي تعسِّر فهم كلام الله بإلهاماتها المليئة بالألغاز.

القانون الكنسيّ يعالج الظهورات من وجهة نظر محدودة وسلبيّة. فالقوانين لا تهتمّ إلاّ بتحديد الظهورات الكاذبة والحُرُم التي تستوجبها.

اللاهوت المريميّ مثل جميع التيّارات اللاهوتيّة، لا يستطيع أن يبني تفكيره على أساس عقليّ منطقيّ. ولمّا كانت هناك شكوك في المصدر الإلهيّ للظهور، فإنّ هذه تجعله خارج حقل أيّ تفكير لاهوتيّ. وبذلك تنقسم الكتب المريميّة إلى قسمَين: الأوّل لاهوتيّ مؤسَّس على الكتاب المقدَّس والثاني هو مجموعة كتب صلاة وتقوى لإكرام مريم.

٨ ـ ضرورة الظهورات ومشاكلها

لا للأنبياء الأمميّين

تعترف الكنيسة بأنّ الله يوجّه بواسطة قدّيسيه إلهامًا خاصًّا إلى إنسان أو مجموعة بشر. وهذا الإلهام الخاصّ لا يصلح إلاّ في زمان ومكان معيّنَين، وهدفه دعوة الناس إلى التوبة أو تجديد حياتهم الروحيّة. وفي الوقت نفسه، يؤكّد اللاهوت على أنّ الوحي الإلهيّ قد انتهى مع موت آخر التلاميذ، وأنّه لا حاجة للحصول على وحي إضافيّ. لذلك، ولإزالة التعارض بين هاتَين الفكرتَين، تمّ الإقرار على أنّ الإلهام الخاصّ الذي يناله الإنسان من الظهورات، لا يكون له معنى أو شرعيّة إلاّ إذا توافق مع الكتاب المقدّس. ولكن قولاً كهذا يفترض أنّنا نعرف كلام الكتب بجميع أبعاده ومعانيه بحيث نستطيع أن نقرّر الإلهام الصحيح من المزيّف. ولو كانت لدينا معرفة كهذه، فما حاجتنا إلى الإلهام الخاصّ؟ ولماذا يرسل الله ذلك الإلهام؟

ما زالت هذه التساؤلات مطروحة دون جواب مقنع. فاللاهوت يفرض شروطه وقوانينه على جميع ما يقال في الكنيسة، ويضيّق الخناق ما استطاع على الرحم التي تولّد الأنبياء، أي على مَن ينعم الله عليهم بإلهامات خاصّة تجعلهم يعرفون الكتب المقدّسة معرفة عميقة. ولدينا في سيرة القدّيس إغناطيوس ده لويولا خير دليل على ذلك. فحين صاغ إغناطيوس خبرته الروحيّة في كتاب الرياضات وحاول نشرها، عارضته محاكم التفتيش. وكانت أوّل حجّة لها أنّه لم يدرس اللاهوت. ومُنِع إغناطيوس عن نشر رياضاته بسبب ذلك رغم أنّ محاكم التفتيش لم تجد فيها ما يتعارض مع الإيمان.

لا كرامة لنبيّ في الكنيسة

نحن نعلم أنّ جوهر إيمان اليهود موجود في كتب التوراة. ولم يكن الأنبياء الذين أتوا بعد ذلك وتكلّموا باسم الربّ يدّعون أنّهم يعلنون شيئًا جديدًا، بل كانوا يعلنون المعرفة الصحيحة والعميقة لِمَا هو موجود، أي للتوراة. فكان هدف

رسالة النبيّ تقويم سلوك الشعب ليعيش في العهد الذي عقده أجداده مع الله، ويجدّده هو وأبناؤه. فعمل النبيّ إذًا هو عمل تأوين Actualisation، أي أنّه يعيد ما ورد في التوراة بكلام معاصر. ومن هذا المنطلق قال يسوع إنّه لم يأتِ لينقض بل ليُتمّم. وما كانت تعاليم المسيح سوى كشفٍ عن هويّة الله وصورة الإنسان المخفيّتين في التوراة. وبعد قيامة يسوع، قام الرسل بدور الأنبياء، وأعلنوا البشارة إلى الشعوب، كلٌّ بحسب ثقافته. وخلف آباء الكنيسة الرسل، وتسلّموا منهم زمام الأمور، وظهرت تيّارات لاهوتيّة متنوّعة، ومدارس متخصّصة، وشيئًا فشيئًا، وبسبب التطرّف والهرطقات، أغلق اللاهوتيّون الباب أمام كلّ معرفة للكنز المقدّس لم يسبقها جهد فكريّ ودراسة. وبذلك، تحوّل الروح القدس من ريح تهبُّ حيث تشاء إلى هواء يولّده مكيّف ويضخّه عبر قنوات محكمة الإغلاق ليوصله أحيانًا إلى حيث لا يشاء.

الظهورات ضرورة إنسانيّة

منذ أن وعى الإنسان إلى وجوده وهو لا يكفّ عن السعي نحو المطلق وتخطّي محدوديّته. فهو يشعر في قرارة نفسه أنّ كيانه لا يقتصر على ذلك الوجود المادّيّ التاريخيّ الفاني، وأنّ فيه شيئًا يجعله يسمو على ما في الطبيعة من مخلوقات. ولذلك، صنع الإنسان آلهة ليعبّر من خلالها عن المطلق الذي يصبو إليه، ووضع لها طقوسًا وعبادات ليتقرّب ما أمكنه من هذا المطلق. ويؤكّد علماء الأنتروبولوجيا أنّ الإنسان بطبيعته توّاق إلى الخروج من ذاته والسعي نحو المطلق. وهذا يؤكّد قول القدّيس أوغسطينُس: «خلقتنا لك يا ربّ، وقلبنا لن يرتاح إلاّ إذا استقرّ فيك».

لقد لبّى الله شوق الإنسان للقائه، فتجسّد وصار إنسانًا. ولكي يبقى حدث التجسّد حاضرًا، ويدوم فرح البشر بوجود الله بينهم، ظهرت الكنيسة والأسرار التي هي علامة حضور المسيح في عالمنا. فالأسرار، خصوصًا سرّ القربان المقدّس، هي إشباع لرغبة الإنسان في لقاء ربّه. لكن هذا الإشباع فقد معناه منذ زمن بعيد، في كنيسة غاص لاهوتها في بحر العقلانيّة، وتحوّل منبر الوعظ فيها

إلى مجلس جدالات مجرّدة. وصار رعاتها مديرين يسوسون أملاكها لجني أكبر كمّيّة ربح ممكنة. وهكذا، ظهرت الهوّة بين تعاليم الكنيسة وطقوسها وبين إيمان الشعب. لهذا نرى أنّ الظهورات لا تنتشر إلاّ في الأوساط الشعبيّة التي لا تفهم شروحات اللاهوتيّين العقلانيّة، وأنّ غالبيّة مُشاهديّ الظهورات نساء أو أطفال، أيّ أشخاص قادرون على إقامة علاقة حبّ عاطفيّ من القلب مع إلههم وخالقهم. ولا عجب إذا كانت العذراء هي الشخصيّة التي تظهر في غالب الأحيان، لأنّها رغم المبالغة في إكرامها وتقريبها من الألوهة، ظلّت إنسانة وأمًّا، قريبة من البشر وبعيدة عن تحليلات اللاهوتيّين والفلاسفة ودراساتهم المجرّدة، فالظهورات في كثير من الأحيان صرخة استياء في وجه مؤسّسة لا تعبأ إدارتها باحتياجات أعضائها.

والظهورات علامة لحضور الله بيننا، وهي وسيلة روحيّة يمكنها أن تساعد نفوس الشعب البسيط على التقرّب إلى الله والارتواء منه. فهي لا تضيف شيئًا إلى وحي الإنجيل، ولكنّها تؤوّن بطريقتها تعاليم المسيح. وهي لا تقود الإنسان إلى الإيمان كما يظنّ البعض، بل تفترض الإيمان لتصديقها والتسليم بها. وهذا الإيمان هو إيمان بشريّ، أي يمكن للمرء أن يكون مسيحيًا كاملاً بدونه. لأنّه لو لم يكن الأمر كذلك، فإنّ وجود الظهورات سيتحوّل إلى برهان يؤكّد صحّة الدين المسيحيّ، وكأنّ مضمون هذا الدين لا يقوم بذاته، وهو من الركاكة بحيث إنّه يحتاج إلى دعامات لاحقة تثبّته.

وعلى كلّ حال، فإنّ ما عرضناه في شأن الديانات البدائيّة يبيّن أنّ للشعب دوراً هامّاً في تحديد منشأ الظهور. فكما أنّ سحرة القبائل ينالون قدرة على شفاء المرضى حين يؤمن الشعب أنّ لهم هذه القدرة، كذلك يصير مصدر الظهور إلهيًا حين يؤمن الشعب، ويتجدّد في حياته الروحيّة. فنحن نعلم أنّ الله لا يبخل على محبّيه بالنعم. ومثل الشعب المؤمن بالظهور كمثل العذراء التي آمنت فتجسّد ابن الله في أحشائها. مَن منّا يستطيع أن يَعزي ظهورًا أثار موجة من التجدّد الروحيّ إلى الشيطان؟ ومن منّا لا يؤمن أنّه حين يصلّي يسمعه الله، وحين يتأمّل فإنّ الله يكلّمه؟ فإذا كان حالنا نحن الأفراد هكذا فما بالنا في جماعة تؤمن بوجود الله

بينها، وبحضوره الحقيقيّ؟ الظهور هو علامة مركّزة لحضور الله تخفي وراءها نعمًا أعمق بكثير من مسألة سيلان زيت أو شفاء من مرض. ومن واجب المؤمنين أن يشدّدوا على هذه العلامات وأن يتعدوا ما استطاعوا عن الوجه المعجزيّ للظهور لأنّه قشور لا علاقة لها بالجوهر.

٩ ـ كيف نكشف الظهورات المزيَّفة

مصادر الإلهام الثلاثة

إنّ أوّل قاعدة في تمييز الإلهامات بَعْد أيّام الرسل وردت في كتاب الديداكي (القرن الثاني الميلاديّ). ويقول الكتاب في سياق الحديث عن الأنبياء داخل الجماعة المسيحيّة: «لا يكون الإنسان الذي يتكلّم بإلهام من الروح القدس نبيًّا إلاّ إذا عاش متشبّهًا بالمسيح. فنحن نميّز إذًا الأنبياء الحقيقيّين من المزيَّفين من خلال طريقة حياتهم. فكلّ نبيّ يدعو إلى إقامة وليمة بإلهام من الروح القدس يمتنع عن الأكل منها، وإلاّ كان نبيًّا كاذبًا. وعلى العكس، كلّ نبيّ تَثبُت صدقه، ويعمل في سبيل سرّ الكنيسة في العالم، ولا يعلّم الناس بأن يقتدوا به، لن يُحكَم عليه عندكم لأنّ محاكمته هي عند الله».

وفي القرن الثالث الميلاديّ، عالج أوريجانس الإسكندريّ موضوع الإلهامات. ويعود إليه الفضل في تحديد مصادرها الثلاثة: «الأفكار التي تتولّد في قلبنا... تأتي أحيانًا منّا، وأحيانًا تثيرها قوى الشرّ فينا، وأحيانًا يرسلها الله أو ملائكته لنا».

وفي القرن الرابع، أعاد يوحنّا كشيانس ما قاله أوريجانس في صيغة مشابهة: «علينا أن نعرف قبل كلّ شيء أنّ هناك مبادئ ثلاثة يمكن لأفكارنا أن تنبع منها وهي: الله، والشيطان، ونحن».

ودخلت نظريّة المصادر الثلاثة للإلهام في عالم النسيان مدّة قرون كثيرة. لكن الطبّ النفسيّ أعادها إلى الذاكرة وبيّنها بدراساته المتنوّعة. واليوم، تقرّ الكنيسة الكاثوليكيّة بأنّ للإلهام مصادر ثلاثة يختلط بعضها ببعض أحيانًا وفق

يتكلّم الشخص في أثناء الانخطاف. لأنّه في هذه الحالة، لا يفقد الإنسان السيطرة على حواسّه فقدانًا كاملاً. فعمل الله في نفس الإنسان يشبه الحجرة التي تسقط في الماء. ومع أنّ السقوط لا يستغرق إلاّ أجزاء من الثانية، تبقى هناك أمواج تتولّد من نقطة السقوط وتتّسع ثمّ تتلاشى. وهكذا، لا يتوقّف الاضطراب الذي ولّده التدخّل الإلهيّ في النفس فجأة مع نهاية الفعل الذي أحدثه، بل يستمرّ وكأنّ النفس ما زالت تستقبل أشياء، ولكنّها في الحقيقة ليست إلاّ أمواجًا إنسانيّة صِرف.

٤ ـ تأثير الحالة النفسيّة لِمَن ينال الرؤى وثقافته. ولهذا الأمر وجهان:

أ ـ تأثير الرغبات: إذا كان الشخص يتوق إلى تحقيق مشروع ما ويرغب بشدّة في أن ينال ظهورًا يدعم مشروعه. فكاترين لابوريه Catherine Labouré تنبّأت عن أمور صحيحة (مجازر سنة ١٨٧٠) لكنّها تحدّثت أيضًا عن أشياء لم تحدث. فقالت لمرشدها: «حسنًا، لقد أخطأت. ظننت أنّني قلت لك شيئًا صحيحاً. وأنا مرتاحة لأن تُعرَفَ الحقيقة».

ب ـ الأفكار المسبقة عن العقيدة والتاريخ، وتذكُّر ما أثّر في نفس مَن ينال الرؤى من قصص وأحاديث. وهكذا نستطيع أن نسمع إيقاع الليترجية الشرقيّة في الإلهامات التي يتحدّث الناس عنها في شرقنا، وإذا نالت راهبة إلهامات فإنّنا نلمس في ما نالته روحانيّة رهبانيّتها.

د ـ صعوبة التعبير بالكلمات عمّا ناله الشخص من نِعَم في أثناء الظهور. فالتعبير الكلامي يشوّه بدون شكّ الحقيقة المكشوفة. وزيادة على ذلك، كثيرًا ما يضيف مَن يدوّن الظهور وشهادة المُشاهد عبارات من عنده من أجل التوضيح.

دور المرشد الروحيّ

ذكرنا مفصّلاً اختلاط الأمور في الظهورات، وكيف يمكن لأهواء النفس وميولها أن تشوّه بعض الشيء الرسالة السماويّة. ولذلك، وجب على مَن يخصّه الله بنعم مميّزة أن يكون لديه مرشد يفتح له قلبه ويخبره بجميع ما يحدث في نفسه من مشاعر وتغيّرات. وعلى المرشد أن يكون ذا خبرة واسعة وحلم ويتمتّع

بعمق الرؤية وسداد الرأي. وهذا الأمر نعمة من الله لا تتوافر بالضرورة عند جميع الكهنة. لذلك من واجب الكاهن غير المؤهَّل لمرافقة نفس كهذه أن يوكل المهمّة إلى شخص آخر، لئلاَّ يرتكب أخطاء تؤدِّي إلى نتائج سلبيَّة.

ومن القواعد الواجب اتِّباعها في إرشاد مَن يتلقَّى رؤى سماويَّة وإلهامات:

١ ـ أن يبدي المرشد صرامة وتشدُّدًا مَع مَن يرشده ليختبر صلابة إيمانه ومتانة الإلهامات التي ينالها. ولا بأس في أن يظهر المرشد معارضة شديدة لِمَا يقوله المسترشد لكي يختبر إصراره.

٢ ـ يمنع المرشد مَن ينال الظهورات عن إخبار الناس بها أو نشرها لكي يُدرِّس الظهور أو الإلهام في حرٍّ من الحرِّيَّة والهدوء بعيدًا عن ضغط الناس، ولكي يتثبت المُرشد من أنّ الظهور ليس نتيجة جهد شخصيّ بسبب إلحاح الشعب كما يحدث في «جلسات ما وراء النفس» التي تحدَّثنا عنها سابقًا.

٣ ـ أن يفرض على مُشاهد الظهور الطاعة، ويأمره بمواظبة عمله اليوميّ لكسب العيش أو نشاطه السابق للظهور وكأنّ شيئًا لم يكن، إلاَّ إذا كان في العمل السابق خطيئة. ففي الطاعة دواء ناجع لداء الكبرياء الذي ينصبه الشيطان فخًّا في طريق، فيسمح الإنسان ظهورات مزيَّفة ليعطيه حظوة في عيون الناس ويدفعه نحو المجد الباطل.

٤ ـ أن يستشير المرشد اختصاصيِّين في جميع فروع العلوم، وأن يسأل عن المسترشد مَن يعرفه من رفاقه وأقربائه وجيرانه وزملائه في العمل... وأن يحيط علمًا بمذهبه ويطلع الأسقف على جميع المعلومات التي يحتاج عليها، إلاَّ ما كان في مقام سرّ الاعتراف.

شروط يستحسن أن تتوافر في المُشاهد

هذه الشروط ليست لازمة لنيل الظهور، فالله يحبّ الصالحين والخطأة ويمطر السماء على الأبرار والأشرار. لكن انتشار ظهور ما عليًّا يفرض أن تتوافر في المُشاهد خصال تكون فدوة للآخرين:

١ ـ أن يتمتَّع المُشاهد بالاتِّزان العقليّ والتواضع والطاعة والثبات وعدم الانحياز

والصراحة والسلوك الحسن، خصوصًا بعد نيله الظهور. لأنّه لا يمكن لعمل الله أن يتحقّق تمامًا دون أن يولّد ذلك تغيّرًا في الحياة الروحيّة لمَن يتلقّى الظهور. ورغم أنّ ماضي الشخص ليس سببًا في نفي إمكانيّة تلقّيه الظهور، هناك بعض العيوب الخاصّة التي يمكنها أن تكوّن عوائق لا يمكن تخطّيها كعدم الصراحة، والميل إلى تضخيم الأمور، وعدم التحفّظ.

٢ ـ وإضافةً إلى ضرورة مطابقة الإلهام مع عقائد الكنيسة وتعاليمها، فإنّه على مضمون الرسائل أن يكون مفيدًا وذا معنى وضروريًّا. فالإلهام الشيطاني يتّصف بسطحيّته وميله إلى النقد والقيام بأفعال عجيبة فارغة المعنى.

١٠ ـ الخاتمة

تُظهر الخبرة أن ظواهر ما فوق الطبيعة لا تنتشر إلاّ في أيّام الأزمات. ومنذ صرخة صاحب المزامير حتّى العذراء المحاربة للشيوعيّة لدينا وجوه لأمور ما فوق الطبيعة لا عدّ لها ولا حصر. وهذا ما يجعل مهمّة تمييز المصدر الإلهيّ للظهور صعبة للغاية. ولذلك، فإنّ الوثائق الرسميّة للكنائس، خصوصًا الكاثوليكيّة، تلحّ على نقطتين: قبول الكنيسة للظهور لا يعني ضمانها لمصدره الإلهيّ، والإيمان بالظهور هو إيمان بشريّ.

ويميّز تعليم الكنيسة بين الإيمان البشريّ والإيمان الإلهيّ. فهذا لا يبحث عن إثباتات قاطعة ولا يريد أن يتثبّت من الأمور لأنّه مبنيّ على علاقة حبّ بين الخالق والمخلوق في ديناميكيّة تجعل من الإنسان فردًا له دور مهمّ في هذه العلاقة. أمّا الإيمان البشريّ، فهو يعتمد على التثبّت من الأمور وصحّتها من خلال لمسها مباشرة في سبيل هدف أسمى. فالفارق إذًا بين الإيمان البشريّ والإلهيّ هو الفارق بين الوسيلة والغاية.

لقد رأينا أنّ قيمة ما هو فوق طبيعيّ لا تكمن في شكله المعجزيّ بل في العلامة التي يدلّ عليها. ولو صحّ لنا استعمال التعابير الفلسفيّة لقلنا إنّ الظهورات هي دالاّت لا معنى لها إلاّ في المدلول. وعلى نحو مختلف الأفعال التقويّة، فإنّ الظهورات لا تأخذ معناها إلاّ من خلال نعمة الله الفاعلة فيها. أي للظهورات

مكانة ثانويّة في الإيمان، لأنّها وسيلة تفقد معناها حين لا تصل إلى الهدف الذي تصبو إليه، أي حين لا تساعد المؤمن على التقدُّم في حياته الروحيّة وعلاقته مع الله. وهذه المكانة الثانويّة يحتّمها الإيمان العقائديّ: «طوبى لمَن لم يروا وآمنوا» (يو ٢٠/٢٩). ولكن مَن منّا يستغني عن الرؤية ويدير لها وجهه ويقول إنّني أُفضّل أن أؤمن بدونها؟ فإذا كانت الطوبى من نصيب مَن يؤمن دون أن يرى، فإنّ محبّة الله تشفق على أصحاب النفوس الضعيفة وتنعم عليهم بالظهورات.

مراجع البحث

- B. Billet, *Vraies et fausses apparitions*, dans *Etudes Mariales*, Paris, 1986.
- J. de Guibert, *Leçons de Théologie spirituelle*, t.1., Apostolat de la prière, Toulouse, 1943.
- R. Laurentin, *Pèlerinages, Sanctuaires, Apparitions*, L'office d'édition, d'impression et de librairie, Paris, 1983.
- *Nouvelles, Institut Catholique de Paris, n°* 1, Février 1977.
- A. Poulain, *Des grâces d'oraison. Traité de Théologie mystique*, 12ème édition, Gabriel Beauchesne, Paris, 1952.
- J. de Tonquédec, *Merveilleux métapshychique et Miracle Chrétien*, Centre d'étude Laënnec, Paris, 1955.